7

البكاء على أكتاف

د. مراد غالب

obeikandl.com

obeikandl.com

كأن رحلة أم كلثوم إلى موسكو، ترتيب قدري لطريق حزن ستعيشه حتى رحيلها في فبراير عام ١٩٧٤م.. رحل عبد الناصر وهي هناك بعد أن أدي آخر مهامه القومية.. قطع أجازته المرضية في مرسي مطروح ليعود إلى القاهرة لرئاسة مؤتمر القمة العربية الطارئة لوضع حد لحقن الدماء التي سالت في العاصمة الأردنية بسبب القتال بين الأردن، ومنظمة التحرير الفلسطينية.

قبل رحلة أم كلثوم بفترة..كان عبد الناصر في نفس العاصمة للتفاوض مع السوفييت بشأن أسلحة جديدة للحرب ضد إسرائيل.. وفي صحيفة البرافدا قالت أم كلثوم رسالتها المغلفة بالأمنيات: «لو انتصر الجيش المصري بالسلاح السوفيتي سوف أغني في شوارع موسكو».

كان الدكتور مراد غالب هو سفير مصر في الاتحاد السوفيتي أثناء زيارة أم كلثوم، والذي أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد، وكان السفير وفاء حجازي وزيرا مفوضا في موسكوَ، وساهم في الإشراف على ترتيب الزياة ومرافقة أم كلثوم حتى عودتها من موسكو إلى القاهرة دون غناء.. يستدعي وفاء حجازي ذكريات هذه الأيام المؤلمة قائلًا:

شهدت هذه الفترة نموًا عاليًّا في العلاقات الثقافية المصرية السوفيتية.. وكانت وزيرة الثقافة السوفيتية مهتمة جدًّا بتنمية العلاقات بين البلدين في هذا المجال، كما لعبت شخصية الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة المصري آنذاك، دورًا حيويًا في ذلك، وكان قادة العمل الثقافي السوفيتي يعرفون قدره، ويحبونه كثيرًا، ويعلمون أنه فنان محب للموسيقي، قبل أن يكون وزيرًا، ومن وقت إلى آخر كان يوجهون إليه دعوات لمشاهدة الجديد من الإنتاج الفني هناك.. ما زلت أذكر دعوته لمجرد مشاهدة بروفات بعض أعمال البالية على مسارح موسكو.

في هذا السياق جاءت دعوة السوفيات لأم كلثوم.. والمبادرة كانت من السوفيت

أنفسهم.. يقول حجازي: «كانوا يعلمون قدرها جيدًّا، وقيمتها الغنائية العظيمة لدي الجماهير العربية، بالإضافة إلى اهتمام عبد الناصر بها الذي اعتبرها سفيرة له ولمصر خاصة في المرحلة التي تلت نكسة ١٩٦٧م.. تم الاتفاق على أن تقوم أم كلثوم بإحياء أربع حفلات في مناطق متعددة في الاتحاد السوفيتي شملت مناطق تحب الموسيقي العربية بفضل تواجد الإسلام فيها مثل طاجكستان، وكازاخستان، وطشقند بالإضافة إلى حفلة في موسكو».

يضيف حجازي: كنت أمارس مهام دور السفير بدلًا من الدكتور مراد غالب الذي كان خارج موسكو لبضعة أيام.. وبهذه الصفة التقيت بوزيرة الثقافة السوفيتية لكي نشرف سويًا على برنامج الزيارة، وكانت رسالة من القيادة السياسية في مصر تم إرسالها إلى القيادة السياسية السوفيتية، تطلب فيها معاملة خاصة لأم كلثوم شأنها في ذلك شأن أي مسئول سياسي مصري كبير تستقبله موسكو.. كما كانت التعليمات تأتينا أولًا بأول من القاهرة: بأن نضع أنفسنا كسفارة تحت تصرفها.. كان كل شيء يتم ترتيبه بدقة كبيرة.

وأذكر أن وزيرة الثقافة السوفيتية طلبت مني إبلاغ أم كلثوم قبل حضورها إلى موسكو نصيحة عدم غنائها في مسرح البولوشوي، والمتفق عليه من البداية، بسبب اتساعه، كما أنه معد في الأصل ومجهز لعروض الباليه، واقترحت الوزيرة بدلًا منه قاعة تشايكوفسكي كبديل، لأنها معدة للموسيقي والغناء، وافقت أم كلثوم على الاقتراح.. كما طلبت وزارة الثقافة أيضًا الأغاني التي ستقدمها لترجمتها إلى الروسية.. وأذكر أن قصيدة « أراك عصي الدمع » لأبي فراس الحمداني، كانت ضمن الأغاني التي ستقدمها في طشقند.. وفشل مترجمو الوزارة من السوفييت في ترجمة معاني عبارة «أراك عصي الدمع»، وأحضرنا مبعوثًا مصريًا كان يدرس في موسكو لترجمتها.. ولما سألت أم كلثوم بعد ذلك عن سبب اختيارها لهذه الأغنية رغم صعوبة معانيها، قالت: إنها تناسب ذوق الجمهور المسلم في طشقند، وسوف يقترب منها الجمهور أكثر

حين يعرف أنها من التراث الشعري القديم.

لم يقتصر الاهتمام السوفيتي كما يقول حجازي على الجوانب الفنية فقط في الزيارة: وإنما امتد إلى كافة التفاصيل الأخرى.. نوع الأطعمة، ونوع المشروبات،وعدد المرافقين،و الأماكن السوفيتية التي ترغب أم كلثوم في زيارتها بالإضافة إلى الأماكن المحددة سلفًا من السوفييت.

كانت وزيرة الثقافة وكل الشخصيات الكبيرة في طاقم وزارتها في استقبال أم كلثوم في المطار، بالإضافة إلى طاقم السفارة المصرية، وعدد كبير من السفراء العرب، وقامت الوزارة بتنظيم حفل استقبال رسمي لها، كما نظمت السفارة المصرية حفل استقبال، وفي الحفلين حضر السفراء العرب ونجوم الفن والفكر والأدب من السوفييت.

يؤكد حجازي : كان الاحتفاء بأم كلثوم رائعًا على كل الأصعدة، ومن كل الذين أتاحت لهم الظروف أن يساهموا في تنظيم الاستقبال تمهيدًا لحفلاتها الفنية الأربع ، وكان مقدرًا أن يحضر هذه الحفلات حشد جماهيري كبير لن يقتصر على أبناء الاتحاد السوفيتي، بل سيكون من كافة الدارسين العرب، ومن بلاد العالم الثالث أيضًا، تقديرًا لهذه السيدة العظيمة، ليس بوصفها فنانة عظيمة وفقط، وإنما كمبعوث رسمي من شخص جمال عبد الناصر.

يسترجع وفاء حجازي ذكريات غير مباشرة قبل لقاء موسكو، ذكريات هي مخزون طبيعي بداخله نحو أم كلثوم شأنه في ذلك شأن أي عربي..

يقول: حين علمنا بأمر قدومها إلى موسكو قفزت أمامي كل ذكريات فنها ،كان حفلها الخميس الأول من كل شهر له مذاق ساحر لأسرتي.. أمي تجهز عشاءً خاصًا.. بينما يشتري أبي كل ما يلزم السهرة حول الراديو.. عشت هذه الهالة منذ الطفولة بين أسرتي.. وكان يتخللها أحاديث الذكريات من كل الذين يجلسون حول الراديو لاستماعها.. ذكريات السياسة والفن والثقافة..نسيان كل ما يتعلق بالهموم والمشاكل..

وظلت هذه الهالة حتى التحقت بالكلية الحربية، وتخرجت ضابطًا في الجيش، وبدأت في التردد على حفلاتها، وملاحظة معني الإعجاب المتبادل بينها وبين ضباط الجيش، فالمعروف عنها أنها كان تغني في الحفلات لجمهور يعرفها وتعرفه، وكان هذا جانبًا مهمًا في انطلاقها نحو الإبداع في الأداء، يزداد بريقه كلما كانت تغني في أي حفلة بين الضباط حيث القواعد الصارمة التي لا يمكن اختراقها وقت الاستماع إليها، سماع له طقوس خاصة، ومراسم غير قابلة للكسر أو الاختراق..كان الضباط بهذه الكيفية يقودونها نحو الإبداع في الأداء.. والتجلي منها.

ويري حجازي أن عبد الناصر كان واحدًا من ضباط الجيش، وبالتالي خضع لقاعدة الارتباط الخاصة بها شأنه في ذلك شأنه باقي الضباط.. وبعد أن قاد ثورة وتولي السلطة، وجدت فيه أم كلثوم ما في شخصيتها وهو أنها «بتاعة الناس»، و من منطلق أنه في السلطة..عثرت فيه على معني كلمة «الراجل بتاعنا».. أي الشاطر حسن الطالع من وسط الناس الغلابة الذي يحمل كل دقائقهم.. هذا نوع من الإحساس أو المعني لا يمكن تصنعه أو التلوين فيه.. ربنا خلق في شخصية عبد الناصر حاجات عجيبة.. عينه مع شكله مع جسمه..اتساق متكامل يوحي بالهيبة النافذة، وفي اعتقادي أن أم كلثوم أحبته كمواطن مصري أصيل كما أحبه كل المصريين البسطاء، لأنها مواطنة مصرية أصيلة طلعت من وسط الناس،والارتباط به كقائد أعطي لفنها لونًا اجتماعيًا مختلفًا، ولشخصيتها طعمًا مختلفا.. هي شعرت في مرحلة من المراحل بالزهو الوطني، والحماس، وبالتالي سخرت لسانها ليكون أداة من أدوات تعبير جمال عبد الناصر عن أحلامه، وأعطاها ذلك شحنة هائلة.

علي خلفية هذه الذكريات جاء تعامل السفير وفاء حجازي مع أم كلثوم في موسكو عن قرب، يقول: «وجدت فيها شخصية آسرة.. لا يخرج منها لفظ أو تصرف خارج الأصول.. وتتكلم بتلقائية عن ذكرياتها وتاريخها، ولا تخجل من ذكر

أي شيء فيه.. وبهذه الطبيعة الشخصية يشعر الإنسان معها، أنها ليست نجمة فريدة في مجالها، بل إنسانة أنت جزء منها، وهي جزء منك..وأن ما وصلت إليه لم يأتها إلا بعد جهد وعرق ومعاناة.. كانت في جلستها لا تتجاهل أحدًا، وتشبك الناس في الأحاديث المشتركة، وتشارك بالاستماع والكلام، وبسرعة بديهة عجيبة، كنا على مائدة الغداء في منزل الدكتور مراد غالب، وفرضت على الحاضرين المرح بخفة دمها وشروقها، ولاحظت أنها أكلت قليلا، فقلت لها: «الأكل مش عاجبك» فضحكت قائلة: «أنا عمري ما قمت على سفرة شبعانة» وذكرتني بالحديث النبوي: «ثلث لطعامك، وثلث لشرابك»، وأضافت: «أنا باطلع على مسرح.. ولازم أترك مكان فاضي في معدتي».. وفي جلسات السمر لم تكن تسمح بأي كلام خارج على شخص عبد الناصر.. كنا في جلسة بنقول نكت، وكان معنا الصحفي الراحل كمال الملاخ.. ونبهها على نكتة كان المقصود بها جمال عبد الناصر، ففزغت وتضايقت كثيرًا.

يواصل حجازي سرد ذكرياته: جمعنا الفرح والحب في كل اللقاءات بها.. كنا نشعر أن مصر جاءت إلينا في موسكو.. جاءت في أهم شخصية فيها بعد جمال عبد الناصر.وعودتني على التبسط معها، أصابني البرد ذات مرة فداعبتني: «أنت جالك البرد، واللا انت اللي رُحت له».

كان الجميع في هذه الحالة الاحتفالية والانشراحية لا يعكرها شيء، ورغم أن درجة حرارة موسكو كانت ١٦ درجة تحت الصفر، إلا أن قلوبنا الفرحة بوجود أم كلثوم كانت أقوي من أجهزة التدفئة في مقاومة لسعات البرد.

تناول الجميع العشاء في منزل وفاء حجازي، ثم تركتهم أم كلثوم لتذهب إلى الفندق للراحة، وبينما يجمع النقاش الحار كل الحاضرين.. دق جرس التليفون.. رفع وفاء حجازي السماعة.. لاحظ الجميع ارتباكه الشديد، وضياع لون وجهه.. وهروب صوته.. ثم خروجه خفيضًا: «جمال عبد الناصر مات».. انفجر الجميع في البكاء

الهستيري، ولطم الخدود، وانكفأت على الأرض الإذاعية اللامعة سامية صادق، والإذاعية أماني ناشد، والبكاء المر منهما لا يوقفه شيء.. أما وفاء حجازي فقد فشل هو الآخر في مقاومة دموعه.. حاول أن يحبس أحزانه أملًا في سيطرته على البكاء ورغم ذلك فشل، يقول: «كنت أجري إلى الحمام.. كلما غلبني الدمع.. وأفشل في السيطرة عليه.. كمية من الألم هائلة.. ألم موجع فيه لسعة نفسية لا يمكن وصفها ولم تفارقني أبدًا.. أشعر بها الآن وأنا أحدثك كل شيء كان مقبضًا على النفس والدموع قليلة عليه».

سادت الحيرة بين الجميع حول كيفية إبلاغ أم كلثوم بالخبر، ومن يستطيع القيام بهذه المهمة.

كان الكاتب الصحفي محمد الحيوان ضمن الوفد الإعلامي المرافق لأم كلثوم ممثلاً عن جريدة الجمهورية ، ويسجل هذه اللحظات الأليمة قائلًا :

«كنا نعرف جميعًا العلاقة بين عبد الناصر وأم كلثوم، ونعرف أن عبد الناصر كرمها، وأنها قدمت خير أيامها.. ومن يستطيع أن ينقل النبأ إليها.. عجز الجميع وتهربوا.. لكن كان لابدّ أن يصل النبأ، في الصباح دخل المهندس محمد الدسوقي على أم كلثوم.. كان وجهه غريبًا عليها.. إنه ابن شقيقتها ويلازمها باستمرار، وشكله اليوم يبدو مختلفًا عن الأمس.. عن كل يوم.. وجه قاتم».

يضيف محمد الحيوان :«سألته أم كلثوم: ماذا بك؟ تمسك بنفسه، وقال: بعض آلام المعدة جعلتني أسهر الليل، ثم خرج من غرفتها إلى غرفته المجاورة ليكمل بكاءه، دخل عليها رفعت الدسوقي.. قال لها: الريس مريض.. سكت، ثم أضاف: مرضه خطير..سكت، ظل على حال قول الكلمة ثم الصمت لمدة نصف ساعة.. وفي كل مرة تزيد لهفة أم كلثوم لمعرفة الباقي.. تحس إحساسًا لا تريد أن تصدقه.. تبعد عن خيالها كل محاولة يتسرب من خلالها إليها شيء لا تتصوره، وأخيرًا قال رفعت ما يعرفه».

ذهبت أم كلثوم في بكاء يدعوا إلى البكاء.. لزمت مقعدها في الصالون الملحق

بغرفتها ٤٨ ساعة متواصلة..دموع صامتة تتساقط تحت نظارتها السوداء.. وشهيق يهزها.. أصابعها تتشابك في نشيج متواصل.. لا تأكل شيئا.. لا تقول شيئًا.. ولا تفعل غير الصمت والدموع.. والمحاولات معها للكلام لا تنقطع.. لكنها لا ترد.

يقول محمد الحيوان: «ذهبت أنا وسامية صادق لتعزيتها، وعجزت عن الكلام أمامها.. وعجزت سامية عن التصرف، وتركناها لأحزانها وانصرفنا».

فتحت السفارة المصرية وكذلك السفارات العربية أبوابها لتلقي العزاء، وفي يوم تشييع عبد الناصر إلى مثواه الأخير في القاهرة في الجنازة الشعبية التي شارك فيها ٦ ملايين مصري.. وملايين خرجوا إلى الشوارع في كل البلاد العربية نظمت السفارة المصرية عزاء وصلاة غائب.

يقول السفير حجازي: ظلت أم كلثوم حبيسة حجرتها حتى يوم الجنازة، وكنت أتردد عليها بين الحين والآخر.. كانت نصفين..نصف مات فور تلقيه الخبر، ونصف يعيش للبكاء فقط.. وفي كل مرة أصعد إلى حجرتها، لا يجمعنا كلام سوي.. صباح الخير. السلام عليكم، فهي لم تكن تعطي فرصة الكلام لأحد.. ويهيأ لي إنه إذا لم يكن الإنسان في هذا الوقت سيبكي فراق عبد الناصر.. كان سيبكي حال أم كلثوم.

في يوم العزاء بالسفارة المصرية، انتظر الجميع مغادرة أم كلثوم لحجرتها،ويصف وفاء حجازي هذه اللحظات القاسية:

من لم ير أم كلثوم لحظة خروجها إلينا، ونحن ننتظرها في صالة الفندق، لم ير الحزن في صورته الحقيقية، أو كما تتحدث عنه الكتب.. اكتشفت وأنا أنظر إليها، أن عمرًا جديدًا أضيف إلى عمرها الحقيقي.. ذهب شروق الوجه وأصبح الفرق بينه وبين وشاحها الأسود التي تغطت به هشا.. وفي خطي متثاقلة كانت تنزل على درجات السلم وهي تستند على ابن أختها محمد الدسوقي، ولما وصلت إلى السفارة، وفور أن شاهدت الدكتور مراد غالب ارتمت في أحضانه، وراحت في بكاء مر،

استمع إليه الجميع.. لم يستطع غالب أن يملك نفسه فبادلها البكاء.. اقترب الكثيرون منها لمساعدتها في الوصول إلى مقعدها.. وبعد أن أدينا صلاة الغائب، اقتربت منها أواسيها رغم أن المصاب مصابنا جميعًا.. قالت لي: «بقينا يتامي يا وفاء.. نفسي أقرأ قرآن في العزا.. لكن خلاص صوتي بقي مش معايا».

يؤكد وفاء حجازي : شعرت مع حالة أم كلثوم أن أشياء جميلة ولي زمانها وراحت مع رحيل عبد الناصر، فكل تصرفاتها كانت توحي بأن رحلتها مع الغناء انتهت، وأن عمرًا من الجمال عشناه معها ذهب ولن يعود!!

يضيف وفاء: «انتظرت في موسكو ثلاثة أيام حتى موعد الطائرة التي ستقلها إلى القاهرة بعد إلغاء برنامج حفلاتها.. ولم نكن خلال هذه الأيام نتبادل من الكلام سوي ما يخص ترتيبات العودة التي كانت تنتظرها على أحر من الجمر، وكنا جميعًا في المطار لوداعها.»

عادت إلى القاهرة ، ويقول الكاتب الصحفي عادل حمودة في حلقات «الحب والحرب » والتي تكشف الخطابات المتبادلة بين جمال عبد الناصر وقرينته السيدة تحية وقت أن كان في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م :

« طلبت أم كلثوم نادية ابنة شقيق السيدة تحية كاظم زوجة جمال عبدالناصر في التليفون لتصحبها لتعزية تحية.. فهي على حد قولها «لا تستطيع وحدها ان تحتمل مواجهتها وهي في هذه الظروف».. وكان المشهد بين الصديقتين لا ينسي.. كانت أم كلثوم تعانقها وهي تبكي جمال عبد الناصر، وكأنها تبكي فقد ابنها.. بقيت تحية هي التي تزورها بانتظام، وعندما سافرت أم كلثوم للعلاج من متاعب الكلي بقيت تحية تتابعها دون توقف، وعندما دعاها الله ولبت النداء كانت تحية هي التي تتلقي فيها العزاء دون أن تمسك دموعها، وكان أهل أم كلثوم وأقاربها هم الذين يواسونها.. لقد راح الموت يأخذ منها أكثر الناس قربا لها .